

(٣٨)

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾

قال المصنف رحمه الله تعالى: (باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ سَلَكَأَبَعِيدًا ۗ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۗ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۗ﴾ [النساء: ٦٠-٦٢].

نقش: قال العماد ابن كثير: والآية دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وتقدم ما ذكره ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما. فمن حاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها.

وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِنَانَا تَعْبُدُونَ ۗ فَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۗ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠] وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَذَا كَفَرُوا كَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۗ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا وغير ذلك مما يتخذه المشركون أصنامًا على صور الصالحين أو الملائكة أو غير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرءوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا

من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعل، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُشْرُؤُا حَسَنَةً فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاؤُةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المسححة:٤] وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده، وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه .

قال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت: ما عبد من دون الله .

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله: فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكاً في الطاعة وخالف ما جاء به الرسول ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَن أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] .

فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه . وإن زعم أنه مؤمن .

فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: ﴿يَرْعُؤُونَ﴾ من نفى إيمانهم، فإن ﴿يَرْعُؤُونَ﴾ إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء:٦٠] لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحدًا .

والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعده . كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦] الآية . وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به .

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ صَلَآةً بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠] يبين تعالى في هذه الآية: أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله، وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد . فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى .

ففي هذه الآية أربعة أمور:

الأول: أنه من إرادة الشيطان .

الثاني: أنه ضلال .

الثالث: تأكيده بالمصدر .

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى .

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين . صلوات الله وسلامه عليه .

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١] بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد عن الإيمان .

قال العلامة ابن القيم: هذا دليل على أن من دُعِيَ إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى، أنه من المنافقين .

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم وهو بمعنى: يعرضون؛ لأن مصدره صدودًا . فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصًا ممن يدعى العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة: في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به . فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريبًا، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا .

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع . والله المستعان .

قال المصنف رحمه الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١١] .

نشر: قال أبو العالية (١) في الآية: يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في

(١) هو: رفيع بن مهران الإمام المقرئ الحافظ المفسر أبو العالية الرياحي البصري أحد الأعلام، جمع على ثقته، أدرك زمان النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق فدخل عليه، وسمع من عمر

الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله .

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُيُرٍ إِتْكُمْ لَسْرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] إلى قوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣] فدللت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض .

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو الفساد في الأرض .

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى . وفيها: التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذ جاءه، وهذا من الفساد في الأرض ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها من الحق وتدخله في الباطل . نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة .

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله ومنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

قال المصنف رحمه الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦] .

ثالث: قال أبو بكر بن عياش^(١) في الآية: إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض .

وقال ابن القيم: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن

وعلي وأبي ذر وابن مسعود وعائشة وأبي موسى وابن عباس وغيرهم . كان كثير الإرسال، من الثانية . توفي سنة (١٩٠هـ) . انظر سير أعلام النبلاء (٤/٢٠٧) .

(١) هو: أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي مولاهم الكوفي المقرئ، الفقيه، المحدث، شيخ الإسلام، وبقية الأعلام، مولى واصل الأحذب . ثقة عابد، إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح . توفي سنة (١٩٤هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٤٩٥) .

عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به : أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره ، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ : هو أعظم الفساد في الأرض ، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا : أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع ، والدعوة له لا لغيره ، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ . فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض ، فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله . انتهى .

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة : أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي ، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وهو سبيل المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُولُ قَوْمٌ يُوَفِّيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٠] .

نقش: قال ابن كثير رحمه الله : ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير ، والناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون بها من الجهالات والضلالات كما يحكم بها التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيز خان الذي وضع لهم كتاباً مجموعاً من أحكام أقيسة من شرائع شتى ، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره . وصار في بنيه شرعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير .

قوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُولُ قَوْمٌ يُوَفِّيهِمْ ﴾ [المائدة: ٥٠] استفهام إنكار أي لا حكم أحسن من حكمه تعالى . وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك ، أي : ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أن الله تعالى : أحكم الحاكمين ، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها ، العليم بمصالح عباده ، القادر على كل شيء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ؟ .

وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية، واختياره على حكم الله ورسوله. فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضده من الباطل.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»^(١) قال النووي: حديث صحيح رواه في كتاب الحججة بإسناد صحيح).

نقش: هذا الحديث: رواه الشيخ أبو الفتح، نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب: الحججة على تارك المحجة بإسناد صحيح كما قاله المصنف عن النووي.

ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون في صحاح الأخبار، وشاهده في القرآن:

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] ونحو هذه الآيات.

قوله: (لا يؤمن أحدكم): لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: (حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). الهوى بالقصر، أي: ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه.

فإن كان الذي يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ لا يخرج عنه إلا ما يخالفه. فهذه صفة أهل الإيمان المطلق.

وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»^(٢) يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢/١)، حديث (١٥)، وفي سنده نعيم بن حماد وهو ضعيف لكثرة خطئه، وقد اتهمه بعضهم، وانظر المشكاة (١٦٧)، ظلال الجنة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الأشربة، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُ اللَّيْبَةَ وَاللَّيْبَةَ﴾ [الثالثة: ٩٠] الآية، حديث (٥٥٧٨)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله، حديث (٥٧).

وينزل عنه في درجة الإسلام وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاصٍ، أو يقال: مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به. كما قال تعالى: ﴿فَتَحَرَّيْ رُقْبَةَ الْمُؤْمِنَةِ﴾ [النساء: ٩٢].

والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها - أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية - من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس: «أمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله»^(١) الحديث، وهو في الصحيحين والسنن.

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] الآية. وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ ءِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] الآية. خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق وقول الحق تصديق فليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة. ولله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧] أي فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة.

وقد سمي الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهًا، فقال تعالى: ﴿أَزَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾ [الفرقان: ٤٣] قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئاً إلا ركه.

قال ابن رجب: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها. فيحب ما أمر به ويكره ما نهي عنه، وقد ورد القرآن: مثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨].

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: أداء الخمس من الإيمان، حديث (٥٣)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه، حديث (١٧).

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله ، محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه ، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً .

وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه ، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً .

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه : ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، فيرضي : ما يرضي به الله ورسوله ، وَيَسْخَطُ مَا يُسْخَطُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض ، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك ، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله وترك ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه ، دل ذلك على نقص محبته الواجبة ، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله .

وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه ، فقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّزَّ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمَ أَنَّهَا بِئَمُورِكَ أَهْوَاءُهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يُغَيِّرْ هُدَىٰ رَبِّكَ اللَّهُ ﴾ الفصم [٥٠:]

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع . ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء . وكذلك المعاصي إنما تقع من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله . وكذلك حب الأشخاص : الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ ، فيجب على المؤمن محبة من يحبه الله ^(١) من الملائكة والمرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً ، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان : أن يحب المرء لا يحبه إلا لله فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً ، وبهذا يكون الدين كله لله وحده . ومن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله : فقد استكمل الإيمان ، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه : كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب . فيجب التوبة من ذلك : انتهى ملخصاً .

(١) ورد هذا المعنى في حديث أنس بن مالك أخرجه البخاري ، كتاب : الإيمان ، باب : حلاوة الإيمان ، حديث (١٦) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، حديث (٤٣) عن أنس مرفوعاً : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله . . . » الحديث .

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم .

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وقال الشعبي ^(١)): كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ [النساء: ٦٠: الآية ^(٢)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ. وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أؤكدك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله ^(٣).

ثم: قوله: وقال الشعبي، هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظًا علامة ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء، وأدرك خلقًا من الصحابة وعاش بضعةً وثمانين سنة. قاله الذهبي .

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان. كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها: من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان .

ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: ٩].

وفي قصة عمر وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق .

وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له وإظهار عداوته فانتقض به عهده . وحل به قتله . وروى مسلم في صحيحه عن عمر: سمعت جابرًا يقول: قال

(١) هو: عامر بن شراحيل الشعبي المتوفى سنة (١٠٣هـ)، وقد تقدمت ترجمته .

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٣/٥) عن الشعبي مرسلًا .

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح (٣٧/٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، والكلبي متهم بالكذب .

رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»، قال محمد بن سلمة: يارسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: ائذن لي فلاقتل، قال: «قل».

فأتاه فقال له، وذكر ما بينهم وقال: إن الرجل قد أراد صدقة وقد عتَّانا. فلما سمعه قال: وأيضاً والله لثملنه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، قال: وقد أردت أن تسلفني سلفاً، قال: فما ترهنني؟ قال: ما تريده؟ قال: ترهنني نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم؟ قال: يسب ابن أحدنا فيقال: رهن في وسقين من تمر. ولكن ترهنك اللأمة - يعني السلاح - قال: نعم. وواعده أن يأتيه بالحارث، وأبي عبس بن جبر، وعباد بن بشر. قال: فجاءوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم - قال سفيان: قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعة وأبو نائلة إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة ليلاً لأجاب، قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم قال: فلما نزل، نزل وهو متوشح. فقالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم، تحتى فلانة أعطر نساء العرب، قال: فتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فشم، فتناولوه فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم. قال: فقتلوه^(١).

وفي قصة عمر: بيان أن المنافق المغموص بالنفاق^(٢) إذا أظهر نفاقه قُتل، كما في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس، فإنه قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(٣) فصلوات الله وسلامه عليه.



(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، حديث (١٨٠١).
 (٢) أي: المتهم به، مطعون في دينه. انظر النهاية (٣/٣٨٦).
 (٣) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية، حديث (٣٥١٨)، ومسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، حديث (٢٥٨٤).